٦٩

هدية من دار المعارف

المكتبة الخضراء للأطفال

٥٢

حسناء والثعبان الملكى

تأليف
يعقوب الشارونى

رسوم
حسام الدين عبد الغنى

الطبعة الثانية

دار المعارف

obeikan.com

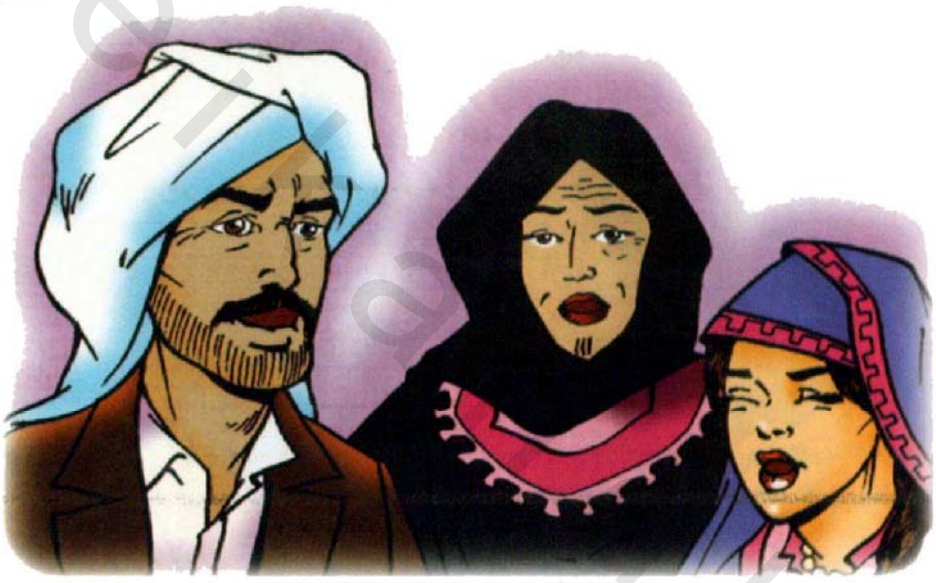

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

obeikandl.com

بعيون يملؤها الفزع فوجئت "حسناء" برؤية "جبل الماء" الهائل يتدفق مُنحدرًا بعنفٍ من فوق "جبل الصخور" المواجه لها على الناحية المقابلة من الوادي.

لم تصدق عينيها وهي ترى أطنان الماء تنزل في سرعة رهيبة مثل وحش صمم على اللحاق بفريسته، ينتزع في طريقه كتل الصخور والأحجار ويحملها كأنها قطع من الأخشاب تطفو وليست صخورًا تغوص، فقد غيرت مياه السيل طبيعة تلك الأحجار فجعلتها تطفو وتتقلب مع موجات الماء وهي تشق طريقها في سرعة لتكتسح كل شيء.

كانت كميات الماء الهائلة التي نزلت أمطارًا شديدة الغزارة من السماء، تندفع مع ما تحمل من صخورٍ إلى الوادي المنخفض المحصور بين الجبال

المرتفعة على جانبيه، فملأَتهُ في لحظات، واختلطت المياه بالرمال فأصبح لون السيل أصفر قاتمًا كأن وجه الصحراء قد غضب فاكهفر.

وقبل أن تفكر حسناء في شيء، كانت مياه السيل العكرة قد ملأت بطن الوادي وبدأت تعلو لتغطي الصخور المنخفضة على سفح الجبال من الجانبين، فانقلب الوادي الصامت الموحش شديد الجفاف إلى نهرٍ متسع هائج له دوي يصم الآذان!

واندفعت جبال الماء، والصخور تحطم أمامها الأشجار النادرة ونباتات الصحراء القليلة وأي شيء يبرز عن سطح الأرض، والمياه تكتسب في كل لحظة سرعة رهيبة وقوة مدمرة.

ولولا أن جدة حسناء قد اختارت بعناية تلك الهضبة الصغيرة المستوية المرتفعة عن بطن الوادي والبعيدة عن مجرى السيل، وأقامت فوقها العشة التي تُظللُها مع حفيدتها، لكانت كتل الصخور المندفعة مع الماء كعاصفة كاسحة قد سحقت الفتاة الصغيرة مع عشتها المتهالكة وجرفتهما بعيدًا.

همست حسناء لنفسها وقد رفعت ذراعيها بغير تفكير لتغطي وجهها من الماء، وهي تسرع لتحتمي بصخرةٍ مرتفعةٍ بجوار العشة: "لم تتصور جدتي أبدًا أن يأتي سيلٌ بمثل هذا العنف والحجم!".

ذلك أن رشاش مياه الأمواج المتلاطمة نتيجة اصطدامها المروع بالجبل في الناحية المقابلة، قد أصاب وجه حسناء وملابسها و "البرش" الذي يُغطي العشة فأغرقها كلها بالبلل الكثيف، كأنها خرجت لتوها من حمامٍ في بحر عميقٍ.

obeikandl.com

شيء واحد قفز بإلحاح إلى وعي حسناء:

"سيفاجئ السيل جدتي وهي عائدة فوق جملها من عند البئر، كما فاجأ أمي ذات يوم الوادي طريق جدتي لإحضار قربتين من الماء العذب نعيش به يومين أو ثلاثة مع الجمل والعنزتين والدجاجات الثلاث".

ولم يكن لدى حسناء وقت لتفكر في تلك المفارقة الغريبة: جدتها تسافر وحيدةً فوق جملها ساعات طويلة مرتين كل أسبوع إلى البئر البعيد لتحضر قليلاً من الماء، لأنه لا توجد قطرة واحدة على مسافة تصل إلى عشرين كيلو مترًا تفصلهم عن البئر، بغير أي أمل في ماء المطر، وسط صحراء مصر الشرقية، بين سلاسل جبال البحر الأحمر، على مبعدة مئات الكيلومترات من نهر النيل.

وقد سافرت الجدة اليوم مع الشروق، وكانت عودتها متوقعة مع

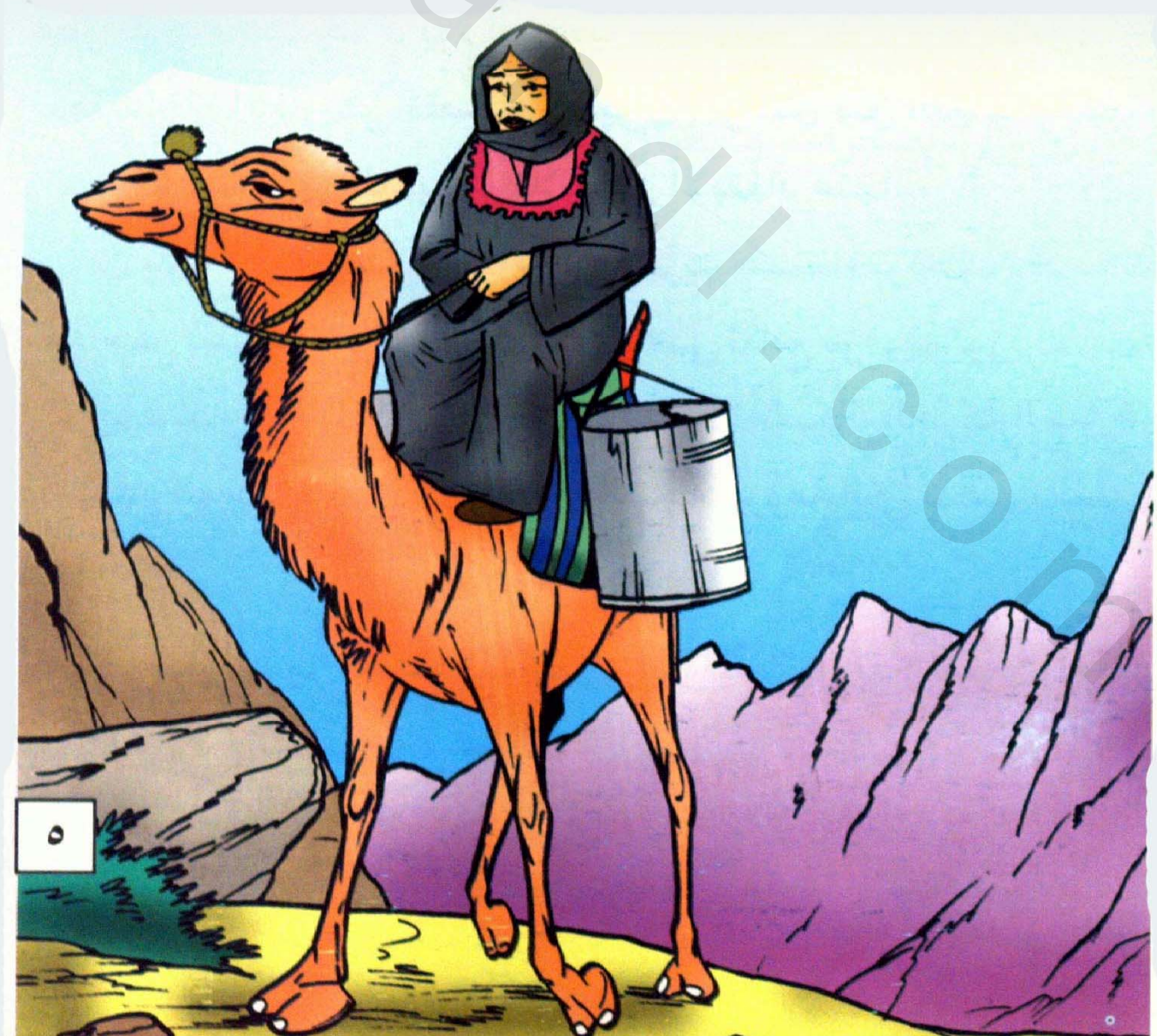

obeikandl.com

الغروب بحثًا عن قطرة ماء، وها هي أطنان من الماء تتدفق الآن تحت قدمي حسناء تكاد تقضي عليها وتقتلها غرقًا أو تسحقها بما تحمل من صخورٍ، وقد سقطت كلها من السماء فانهمرت سيولاً بغير حساب!!

ولم تفكر أبدًا في أن حياتها مع جدتها وحدهما بغير أنيس من البشر في هذه الصحراء المترامية وسط الصخور الموحشة، هي الشيء الغريب! فكل أفراد عائلات قبائل صحراء مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، تعيش مُنفردةً، تفصل بين كل عشةٍ وأخرى مسافة لا تقل عن ستة أو سبعة كيلومترات.

كما أنهم لا يحبون الحياة بالقرب من الآبار، لأن كل هارب أو مغامر في الصحراء لن يبحث إلا عن مكانٍ قريب من بئرً ليتفادى مواجهة خطر الموت عطشًا خلال يوم أو يومين بسبب حر الصحراء القاتل.

كذلك فإن الآبار هي مقصد كل حيوان متوحش مثل الذباب والضباع والثعالب والثعابين الكبيرة، فلا بد من الابتعاد عنها.

ومن وقت الظهر وحتى الغروب استمرت حسناء ترتجف وقد ملأت الهواجس نفسها خوفًا على جدتها، وهي تتابع مرعوبة ثورة الطبيعة الطاغية، تمارس فيها الأرض والسماء أعنف أشكال الحركة الجبارة، والاندفاع العشوائي الذي لا يرحم، والضجة المروعة التي تذهب بالعقل!

* * *

وكما بدأ السيل فجأة، فإنه قبل الغروب بقليلٍ بدأ اندفاع الماء يقلُ فجأةً، والأصوات الهادة تهدأ.

obeikandl.com

وقليلاً قليلاً توقف انحدار الماء واصطدام الصخور، وحل محلها صوت الخرير المرتفع الصادر عن الماء الذي ظل يتسرب من آلاف الشقوق التي تتخلل أحجار الجبل، وهو يتساقط في طريقه إلى بطن الوادي.

ورويدًا رويدًا هدأت مياه النهر العريض الغاضب الذي صنعته الطبيعة في ساعات، بل بدأ سطح الماء ينخفض قليلاً قليلاً حتى ظهرت الصخور عند قاعدة الجبال على جانبي الوادي نظيفة ناصعة الألوان واضحة الشقوق، فبدأت السحالي والفئران والعقارب وغيرها من الزواحف والقوارض التي هربت من السيل تعود إلى جحورها وشقوقها.

وعندما ملأ اللون البرتقالي السماء قبيل الغروب، كانت رمال الصحراء العطشى قد تشربت الماء كله، وتركت الحصى الأملس البني والأحمر وقطع الصخور الخشنة المفتتة تفترش قاع الوادي، بينما صوت الخرير يضعف إلى أن اختفى تمامًا، وعاد الهدوء والصمت يُخيمان على الصحراء ويسيطران عليها.

* * *

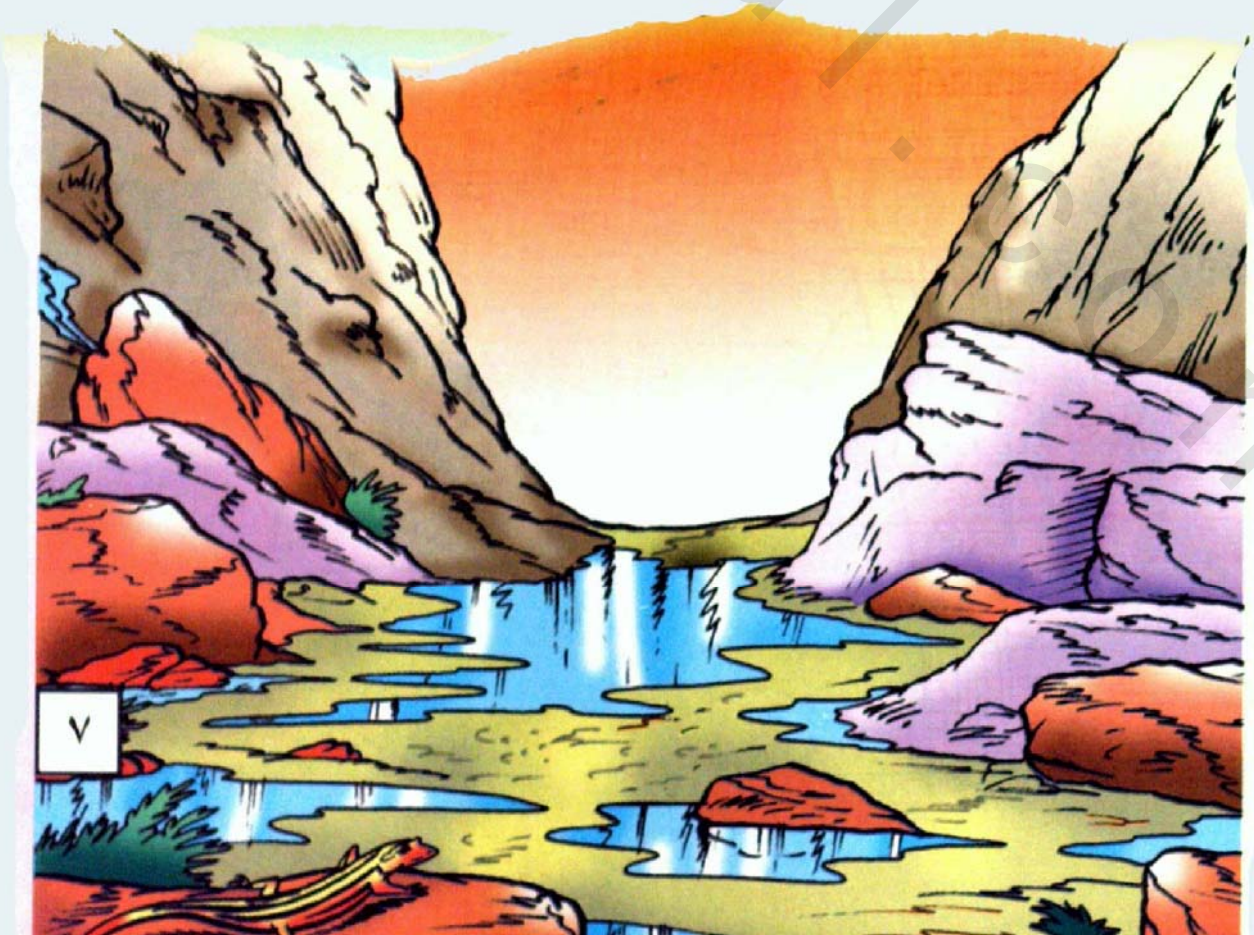

obeikandi.com

لكن الجدة لم تظهر، ولم يظهر الجمل الذي كان يحمل الجدة.

سألت حسناء نفسها في قلق شديد:

"ماذا أفعل إذا كان السيل قد حاصر جدتي؟! هل يمكن أن أواصل الحياة وحدي هنا إذا كان قد أخذها معها كما أخذ أمي من قبل؟!!".

ثم عادت تقول: "طلبت منها كثيرًا أن تأخذني خلفها فوق الجمل لكي أحفظ جيدًا معالم الطريق إلى البئر، لكن لم أسمع منها إلا إجابة واحدة لم تتغير: "عندما تكبرين!".. لعلها كانت تتصور أن استجابة طلبي معناه أن النهاية أصبحت قريبة منها!.. وها هي النهاية قد أقبلت فجأة على غير توقع، وبرميل الماء داخل عشتنا فارغ!!".

obeikandl.com

ومن خلال هواجسها ظهر أمامها سؤالٌ جديدٌ غريبٌ، تذكرت معه حياتها مع والـــدها بعد فراق والدتها: "هل كانت جدتي تخشى أن يراني – عند البئر – أحـــد الـــشباب، فيطلـــب الزواج مني، وهي تكره فكرة فراقي؟!".

* * *

وفجأة أحست حسناء بالعطش، فأدركت المأزق الذي ينتظرها.

ضغطت على شفتها السفلى بأسنانها وقالت تلوم نفسها:

"كان الماء كثيرًا أمامي، فكيف لم أفكر أن آخذ منه حاجتي؟ هل كنت أتوقـــع عـــودة جدتي سريعًا بالماء على الرغم من السيل، أم أن الرعب شل تفكيري؟!".

لكنها عادت تهدئ نفسها وتجيب عن تساؤلاتها:

"اختلاط الرمل بالسيل، ولون الماء القائم، لم يسمحا لي بالتفكير في الاحتفاظ بـــشيء لري العطش".

ثم أضافت: و"هل كان في إمكاني المخاطرة بالنزول إلى مجرى ماء السيل فيـــسحبني منه كما سحب والدتي من قبل؟ وكيف كنت آمن أن السيل لن يعاود التدفق من جديدٍ فيأخـــذني معه في طريقه الجبار؟".

* * *

كان قلق حسناء على جدتها قد تزايد حتى وصل إلى الاعتقاد بأنها قد فقدتها إلى الأبد، وحاجتها على ماء الشرب اشتدت حتى أصبحت تتوقع الموت عطشًا، عنـــدما ســـمعت فجـــأة صوتًا تعرفه جيدًا وتخافه كثيرًا. إنه صوت خافتٌ كالذي يُحدثه احتكاك عظامٍ ببعضها.

obeikandl.com

همست لنفسها وقد تثبتت في مكانها لا تتحرك من الخوف:

"جدتي لم ترجع، وهذا صوت قشور جلد ثعبان الطريشة يُنذرني باقتراب وحش الصحراء المميت بعد أن أخرجه ماء السيل من مخبئه تحت الرمال. إنه النوع الوحيد نم الثعابين الذي نكرهه نحن سكان الصحراء!".

كانت تعرف جيدًا أن ثعبان الطريشة رغم صغر حجمه، فإنه بما في أنيابه من سم قاتل سريع المفعول يُعتبر أبشع عدوٍ لسكان الصحراء وحيواناتها، فعَضّتُهُ تقتلُ خلال لحظات.

لقد رأت ذات مرة رجلاً من قبيلتها قد عضهُ ثعبان الطريشة في يده، وكان قد مدها ليمسك حزمة حطب وهو غير مُتنبه إلى أن الوحش الصغير تحتها يتربص. وفي الحال أخرج الرجل سكينه من حزامه الجلدي، وبضربة واحدةٍ قطع يدهُ وما بها من سم من فوق مكان العضة، فانفجر شلال من الدم، وأسرع من حوله يضمدونه لإيقاف النزيف ويصبون عليه الدهن المغلي لتطهيره، لكن الثعبان الآثم الخبيث كان قد دفن نفسه تحت الرمال واختفى.

وأدارات حسناء عينيها ببطء، فشاهدت الثعبان الغليظ القصير ملفوفًا حول نفسه ورأسُه المُبطّطُ الملثلثُ الشكل تبرق منه عيناه المُسدّدتان نحوها والشرر يتطاير منهما!!

obeikandi.com

خافت أن تتحرك فيهاجمها الوحش الماكر، فثعبان الطريشة قادر أن يفرد جسمه فجأة كأنه وترد مشدود تركه صاحبه فجأة، فيقفز في الهواء كأنه يطير لينهش ضحيته في غمضة عين ثم يختفي.

همست لنفسها وشفتاها ترتجفان:

"تصورت أن جدتث قد أخذها السيل، لكن يبدو أنها هي التي ستأتي فتجدني أنا قد انتهيت!".

* * *

وفجأة رأت رأس الثعبان اللئيم يتحول بعيدًا كأنه خاف من شيء، ثم أسرع يدس جسمه في الرمال ويختفي!!

والتفتت تحاول اكتشاف ذلك الشيء العجيب الذي كان السبب في إنقاذها من تلك الحية الشريرة!

وبدل أن يملأها خوف أشد، طاف بوجهها ظل ابتسامة، فما رأته لم يكن إلا ثعبانًا ضخمًا قد رفع رأسه في مواجهتها.

obeikandl.com

ثعبان أضخم من ثعبان الطريشة مرات ومرات، وقد التف معظم جسمه الطويل حول ذيله عدة لفات، ورفع رأسه من بين طيات جسمه الكبير فأصبح في مواجهة وجه حسناء.

كان ينظر مباشرة في عينيها.

عيناه الخضراوتان زمردتان تشعان بريقًا كأنهما الماس.

قالت وهي لا تستطيع أن تبعد بصرها عن عينيه: "أهلاً!"

كانت منذ فوجئت بالطريشة بجوارها وجسدها يرتعد وشفتاها ترتعشان.. الآن تنبهت إلى أن الارتعاد توقف والارتعاش زال.

لقد فارقها الخوف وعاد إليها الثبات.

لم تكن في العينين الزمردتين قسوة ولا رغبة في العدوان..

ولم تظهر في حركاته اللطيفة أية رغبة في الإيذاء والهجوم، بل وقت في جلال صامتًا ينظر إليها في هدوء..

كان كأنه ينتظر منها شيئًا.. وفكرت:

"إنه ينتظر أن أشكره لأنه أنقذ حياتي من الوحش اللئيم!".

وبغير تفكير في اختيار الكلمات قالت حسناء وحي تحاول جاهدة أن تظهر ابتسامة واضحة على شفتيها: "أشكرك!".

قالت لنفسها:

"إذا كان لا يفهم الكلمات فمن المحتمل أن يفهم تعبيرات الوجه ونغمات الصوت!".

وكأنما قد فهم فعلاً، فقد هز رأسه في شموخ، ثم أراح رأسه على بقية جسمه في اطمئنان.

* * *

obeikandl.com

وتذكرت حسناء المرة الأولى التي قابلت فيها هذا المخلوق الغريب!..

كانت تطارد الثعلب الأحمر الذي اعتاد أن يسرق بيض دجاجات جـدتها الـثلاث، إذا حدث وباضت واحدة منها خارج القفص الذي حرصت جدتها على متانته وسـلامته ليحمـي دجاجها من غارات أمثال ذلك الثعلب العنيد.

وقادتها المطاردة إلى حفرة بين الصخور وجدت بها عددًا مـن البـيض المـستطيل الشكل.. ولمست غلاف البيض فوجدته ليناً مثل الجلد، فتأكد ظنها.

وتركت مطاردة الثعلب وأمسكت حجرًا وقد فكرت أن تقذف به ذلك البيض فتحطمه.. لقد عرفت أنه بيض ثعبان، لكنه أكبر حجمًا بكثير من بيض الثعابين الذي اعتـادت أن تعثـر عليه.

ثم تنبهت إلى أنها لم تعد ترى الثعلب الذي كانت تُطارده وهو يهـرب منهـا، لكنـه اختفى.. ببساطة.. اختفى من أمام ناظريها!!

ثم أدركت انه اختفى داخل فكي ثعبان هائل الحجم عيناه زمردتان، لا شك أنه صاحب ذلك البيض.

لقد خلصها ذلك الثعبان من عدو تكرهه جدتها، فهل تجازيه بتحطيم بيضه؟

وتراخت يدها، وأفلتت الحجر الذي كانت تمسك به.

وتذكرت معتقدات أفراد قبيلتها:

قالت جدتها: "الثعابين من الجن التي تتخفى على هذه الهيئة فيحرص أفراد القبيلة على عدم إلحاق الأذى بها ولا ببيضها، فهي قادرة على الانتقام، ما عدا الطريشة فنقتلها لأنها حية مؤذية".

obeikandl.com

سألت حسناء نفسها: "وهل هذا الثعبان الهائل صاحب البيض المستطيل والعينين الزمردتين من الجن الذي يُقدم المساعدة للبشر ولا يؤذي إنسانًا، أم من الجن المؤذي؟".

وفي هدوء انحنت على الأرض كما اعتاد بدو الصحراء الشرقية أن يفعلوا، ورسمت في الرمال سبعة خطوط أفقية بينها وبين الثعبان الكبير وهي تقول: "هذه حدود الله بيني وبينك".

قالت: "إذا تحرك هذا الثعبان بعيدًا عني وعن الخطوط السبعة يكون من الجن المسالم ومن واجبي أن أتركه في سلام.. هكذا علمتني جدتي.. أما إذا تقدم الثعبان مارًا على تلك الخطوط فهو جني يستحق القتل!".

لكن صاحب العينين الزمردتين ظل في مكانه لا يتحرك، لا بعيدًا عنها ولا مقتربًا منها!!

وبعد لحظة رفع رأسه، ونشر ما تحت رأسه!

وفي دهشة صاحت حسناء:

"إنها الحية الملكية.. شاهدت صورتها منحوتة على الجدران الصخرية بجوار منـــاجم الذهب القديمة وسط الجبال بالقرب من هنا. كانت مرسومة فوق رأس الملك الذي حكم مصر في الزمن القديم وشكلها بارزٌ على مقدمة تاجه".

وكأنما لم تكن الحية تنتظر إلا تعرف حسناء عليها، فتحركت في تلك اللحظة وانساب جسمها الطويل مبتعدًا في هدوء.

* * *

وقد رأتها حسناء مرة واحدة بعد ذلك.

كانت تجول في شعاب الجبل تبحث عن حطب لإشعال النار وطهي الطعـــام وصـــنع الخبز، عندما تنبهت إلى أنها قد ضلت الطريق.

وحاولت تتبع أثر أقدامها، فكل أهل الصحراء يتقنون تتبع آثار الأقدام، لكنها لم تجـــد إلا آثار زحف تلك الحية الملكية هائلة الحجم.

وبعد أن تابعت أثر الحية مسافةً، قابلتها تزحف، فتتبعتها إلى أن عادت معها إلى عشة جدتها.

سألت حسناء نفسها: "هل قصدت حقًا أن ترشدني لأعود لأنها من الجن الطيب كمـــا تقول جدتي، أم كانت عائدة إلى بيتها كما تعودت أن تعود كل يوم؟!".

ثم أنهت حوارها مع نفسها قائلة:

"بل هي لا تنسى أنني حافظت على ما كان في حفرتها من بيض".

* * *

obeikandl.com

وها هي تراها اليوم، للمرة الثالثة، تنقذها من الحية الطريشة المؤذية التي أخرجها السيل من مكمنها تحت الرمال.

همست حسناء لنفسها:

"وهل يُمكن أن يكون كل هذا مصادفات؟".

* * *

هنا انتزعها الإحساس الشديد بالعطش من هذه الذكريات التي سيطرت عليها لحظات، وتنبهت إلى ثغاء الماعزتين الطويل الحاد الذي لا يصدر إلا عند حاجتهما الشديدة إلى الماء، فاتجهت ناحيتهما تمسح على رأسيهما وهي تقول في إشفاق:

"لن أترك الحاجة إلى الماء تقتلنا...".

obeikan

وأسرعت إلى الخيمة أو العشة، والتي يُسميها سكان الصحراء "الخيشة" وأزاحت غطاء الحصير المصنوع من سعف النخل والذي يُسمونه "البرش"، فكشفت عن مدخل هيكل العشة المصنوع من أغصان أشجار السنط والسيال الصحراوية والذي يحمل فوقه الغطاء أو البرش، ودارت بعينيها تُقلّبُهما بين الأدوات البسيطة التي لا تتجاوز أواني الطهي وصاجة صنع الخبز.

ثم اتجهت فورًا إلى الكيس المصنوع من القماش السميك الذي نسجته جدتها من وبر الجمل وفيه يحتفظون بقطع ملابسهم القليلة، وفتحت الرباط الذي يلتف حول فوهته، وأخرجت الجلباب القصير الذي كانت ترتديه وهي طفلة صغيرة، ثم تناولت وعاء الطبخ الصغير، وأسرعت تقفز من صخرة إلى صخرة تبحث عن فجوة بين الأحجار تكون قد احتفظت داخلها ببعض ماء السيل.

وكلما وجدت قطرات هنا أو هناك، تغمس فيها قماش الثوب فيتشرب النسيج الماء، ثم تعصره في الوعاء.

وعندما تجمع من القطرات شربةُ ماء، أمسكت حسناء الوعاء بين يديها ورفعت حافته إلى شفتيها وشربت ببطء نصف ما فيه، ثم

obeikandl.com

أسرعت تضعه على الأرض أمام العنزتين لتلعقا في سرعة ما بقى.

* * *

عندئذ فقط تنبهت إلى أن قرص الشمس قد اختفى وراء قمم الجبال المتفاوتة الارتفاع، كما اختفت ألوان الغسق، لكن القمر ظهر بدرًا فبدد بعض الظلام الحالك الكثيف الذي يُغطي الصحراء في الليل حتى لا يترك للإنسان أن يرى كفهُ، فعادت حسناء تواصل عملها في "جني" محصول قطرات الماء وهي تردد قائلة لنفسها:

"إذا كانت جدتي قد نجت من السيل، فلا شك أنها الآن في طريقها إلى هنا، ما دام القمر يسمح للجمل أن يرى طريقه".

وقد وجدت حسناء من قطرات الماء ما ملأ قميص طفولتها أكثر من مرة، فأطفأت نار عطشها، لكنها لم ترتو لا هي ولا العنزتان.

* * *

ومع أن حسناء اعتادت أن تنام مع حلول الظلام، فإنها لم تحاول هذه الليلة أن تنام، بل لم تفكر في النوم، إنما جلست على حافة الهضبة الصغيرة، فوق المساحة التي استقرت فوقها "خيشة" جدتها، تركز بصرها على الوادي تحتها، لعل بصرها يقع على جدتها حالما تُصبح في مرمى بصرها عندما تعود فوق جملها.

لكن المجهود الذي بذلته في يومها غلبها، فبدأت تدعك عينيها لتحملها على عدم الانطباق، ثم قالت لنفسها وهي تتثاءب: "سأسند ظهري إلى هذه الصخرة التي تحمي خيمتنا من الرياح، فأتمكن من رؤية أي شيء يتحرك في الوادي".

obeikandl.com

وفجأة شعرت بدفء يغمر وجهها، فأسرعت فزعة تفتح عينيها لتجد أشعة شمس الصباح قد غمرت العالم الرحب الفسيح الذي طالما شعرت فيه بالانطلاق والأمان، لا تحدها قيود المكان أو الزمان.

* * *

لكن شيئًا عجيبًا كان قد حدث خلال الليل، فقد اختفى من جنبات الوادي اللون الأصفر الذي لا تعرف الرمال لونًا غيره، وصافح عيني حسناء اللون الأخضر لكساء ناعم غطى معظم مساحة قاع الوادي، خاصة على الجانبين، حيثُ لم تكتسح مياةُ السيل كل التربة، فسمح ذلك بنمو تلك النباتات العجيبة التي تظل بدورها نائمة على سطح الصحراء شهورًا طويلة بل سنوات، لكنها ما أن تشم رائحة الماء حتى تظل زاهية خضراء، لتبدأ في سرعةٍ دورة حياتها القصيرة من إنبات إلى زهور إلى بذور، قبل أن يقضي عليها الجفاف وسخونة حرارة الصحراء.

قالت حسناء: "ستجد العنزتان والجمل غذاءً وفيرًا".

وكأنما تذكرها للجمل قد أشعل ذاكرتها فجأة وبعنف، فهبت واقفةً تصيح وكأنها تصرخ:

"الصبح أقبل لكن جدتي لم تعد!!".

وبغير تردد قررت ما الذي يجب أن تقوم به:

التفتت إلى العنزتين وقالت في تصميم: "سنذهب لملاقاة جدتي

obeikandl.com

في طريق عودتها، أو نواصل السير حتى نصل إلى الماء في البئر".

وتذكرت الدجاجات، وأنه لا يجب تركها بغير ماء، فقالت لنفسها: "الفجوات بين الصخور على الجانب الذي انحدر من فوقه السيل لا بد أنها تحتوي على بعض الماء أكثر مما وجدت هنا".

وأسرعت تتناول جلباب طفولتها مع الوعاء، ونزلت إلى بطن الوادي، ثم بدأت تتسلق صخور الجانب الآخر، حيث عثرت – بعد مجهود قليل– على ماء ملأ الوعاء.

قالت وهي تضع الوعاء داخل قفص الدجاجات:

"سيكفيك هذا الماء يومين إلى أن أعثر على جدتي، ونعود ومعنا ماءٌ من البئر".

وبعد لحظات كانت تسرع وخلفها العنزتان في اتجاه مدخل الوادي، لا يعوقها إلا تمهل العنزتين بين وقت وآخر كلما عثرنا على نبتة خضراء، فكانت تهمس قائلة: "هما تأكلان النباتات وما بها من عصارةٍ، وأنا أشرب من اللبن الذي قد أجده في ضروعهما".

* * *

توقفت حسناء عند مدخل الوادي تتأمل بيقظة ما حولها وهي تقول:

"عندما تركت أبي في مدينة "مرسى علم" مع بداية الشتاء قبل الماضي، وجئت مع جدتي لأول مرة، توقفنا ليلة عند البئر في طريقنا إلى هنا، وقد أثارت ألوان الجبال الجميلة وأشكالها الرائعة الشامخة انتباهي بقوة، فهل تساعدني ذاكرتي الآن لأتعرف على معالم الطريق حتى لا أضل أو أتوه؟".

ولم يطل بها التأمل، فقد التفتت إلى العنزتين وقالت وهي تشير إلى جبلٍ على يمينها:

obeikandl.com

"الآن أتذكر بوضوح هذا الجبل.. نصفه العلوي أحمر والنصف الآخر يميل إلى السواد.. وهذا الجبل الذي هناك أقل ارتفاعًا منهما ولونه أقرب إلى البياض.." ثم عادت تهتف لنفسها وهي تستعيد شريط ذكرياتها: "وبعده صخرة نحتتها الرياح والأمطار على شكل رأس جمل وسنامه..".

كانت صور الطريق قد تم حفرها في ذاكرتها بوضوح، فانطلقت تسير بغير تردد كأنما اعتادت أن تروح وتجيء كل يوم في نفس الطريق. وكانت تردد قائلة لنفسها:

obeikandl.com

"أمامي طريق طويلٌ لن أبلغ نهايته في الظهر ولا مع العصر أو عند الغروب، لكن لا بد أن أصل إلى البئر قبل حلول الظلام.. جدتي تقول لي دائمًا إن ليل الصحراء حافل بالمفاجآت، أخطرها الزواحف والوحش التي تخاف حر النهار ولا تخرج من مخابئها إلا مع برودة هواء الليل".

* * *

وامتزجت صور الطريق بذكريات فراقهما لوالدها.. تذكرت وجهه الأسمر الذي امتزجت فيه خشونة حياة الصحراء، بحنان الأبوة، وكيف كان يطل عليها مع كل صخر تتخيل أن الطبيعة قد نحتت منها ما يُشبه وجه إنسان.

ومع ملامح وجه والدها التي لا تفارقُ مخيلتها، تدوي في أذنيها آخر عبارة قالها لجدتها:

"حسناء أمانة في عنقك".

فأجابته الجدة في رقة وفي شبه عتابٍ:

"هل توصيني على ابنتي؟!".

ثم افترقوا بغير تبادل كلمات كثيرة أخرى.

كانت حسناء عندئذ في الحادية عشرة من عمرها، يظنها من يراها في السادسة عشرة من علامات أنوثة مبكرة ظهرت عليها، تعيش مع والدها بعد وفاة والدتها، في بيته المتواضع المكون من غرفتين صغيرتين استأجرهما بالقرب من مركز التعدين في مدينة "مرسى علم" الصغيرة على شاطئ البحر الأحمر، حيث يعمل سائقًا لإحدى سيارات المركز.

كان عمله يتطلب منه أن يترك حسناء وحدها في البيت معظم ساعات النهار، لينتقل بسيارته من "بريمة حفر" إلى "بريمة" أخرى، يجمع

obeikandl.com

من المهندسين عينات الصخور التي يخرجونها من الآبار الجديدة التي تحفرها شركات البترول، ثم يعود بتلك العينات إلى مركز التعدين لتحليلها والتعرف على ما تحتوي عليه من شواهد بترولية تنبئ عن قرب الوصول إلى حقل عميق من حقول الذهب الأسود، على عمق ألفين أو ثلاثة آلاف متر تحت سطح الأرض.

وقبل السكن في المدينة، كانت حسناء تساعد والدتها في رعي الأغنام بالمنطقة غير البعيدة عن "مرسى علم" يتركهما الوالد فيغيب أيامًا بسبب انشغاله في التنقل بسيارة مركز التعدين، بعد أن كان يعمل في رعي الإبل ويغيب أحياناً أسابيع أو شهورًا بحثًا عن المرعى الخصيب لجماله.

وفي تلك الفترة المبكرة من حياتها، تعلمت حسناً كيف تصنع أكياسًا من القماش تلف بها ضرع الماعز لتمنع عنها الصغار المولودة حديثًا، فلبن الماعز غذاء رئيسي للبدور يعتمدون عليه كثيرًا في الغذاء.

هنا صوبت حسناء نظرها إلى ضروع الماعزتين، ثم افترشت الأرض بجوار إحداهما، وراحت ترشف اللبن من الضرع مباشرةً.

كانت حسناء وهي مع أمها، تخرج مع الحيوانات منذ شروق الشمس ولا تعود إلا مع غروبها، وقد تسير أثناء الرعي ساعات طويلة. ومع امتداد تجوالها في الصحراء طوال النهار، لا حمل معها طعامًا ولا شرابًا. فهذا تقليد يحرص الآباء والأمهات على أن يلتزم به الأبناء، لكي يتعودوا تحمل مشاق الجوع والعطش.

قالت حسناء لنفسها: "لولا ذلك التدريب الذي كنت أراه في ذلك الوقت قاسيًا على طفلة مثلي، لما أتتني الجرأة على القيام برحلتي هذه الآن".

obeikandl.com

هنا تذكرت حسناء معركتها مع الصقور التي تجمعت ذات يوم في السماء فوق رأسها، محاول الانقضاض على القطيع لتخطف ماعزة ولدت منذ يومين. لم تكن حسناء تملك إلا قطع الحجارة الصغيرة التي ظلت تقذف بها الصقور في إصرار وشجاعة لتدافع عن قطيعها، لكن الغلبة كانت في النهاية للصقور التي حملت الماعزة الصغيرة بين مخالبها، وهربت مسرعة صوب السماء.

وفي ذلك اليوم قالت لها والدتها عندما رأتها تعود باكية: "الشر أو الأذى قادر أن يتجمع لمهاجمة الإنسان، لكن على الخير أن يدافع عن نفسه إلى النهاية. فهذه هي قوة الإنسان الحقيقية.

* * *

وذات يوم عادت حسناء من الرعي مع الغروب. فلم تجد والدتها ولا خيمـــتهم، بـــل وجدت الوادي تتلاطم فيه مياه السيل الذي تدفق عندما كانت بعيدة مع قطيع الماعز، فاكتـــسح أمامه كل شيء.

وعاد الأب مسرعًا عندما وصل إليه خبر السيل، فلم يعثر على زوجته إلا على مبعدة آلاف الأمتار، وقد قتلتها قطع الصخور المتدافعة التي حملتها معها مياه السيل الغادرة.

وكانت حسناء أصغر من أن يتركها والدها وحيدة في خيمة الصحراء كما اعتاد البدو هناك أن يتركوا نساءهم وأولادهم، فباع قطيع الماعز واصطحب حسناء لتعيش معه في مدينة التعدين الصغيرة.

وفوجئ الأب ذات يوم بزميل له في مثل سنه يطلب الزواج من حسناء.

قال الوالد: "لا تجعل طول قامتها يخدعك عن سنها.. إنها لا تزال صغيرة.

قال الزميل: "نكتب الكتاب ونؤجل الزفاف عامًا أو عامين".

قال الوالد وهو يعرف أن الهدف الحقيقي لزميله أن يجد من ينظف له بيته ويعـــد لـــه طعامه ويرعى له – أحيانًا – بعض الأغنام، وأنه بعد عقد العقد لن ينتظر سنة ولا شهرًا بـــل يتمسك بأنها زوجته ومن حقه أن تنتقل إلى بيته:

"لابد أن أستمع إلى رأي ابنتي".

هنا عاد الزميل يقول: "تقول إنها صغيرة السن، فلن يكون لها رأي إلا الموافقة".

obeikandl.com

لكن الوالد كان يعرف أن طفولة ابنته في الصحراء جعلت منها صاحبة رأي وشخصية قوية، وان اعتمادها على نفسها واضطرارها في كل حين إلى اتخاذ قراراتها بنفسها لمواجهة ما يعترضها من صعاب مفاجئة، جعل من الضروري أن يعرض عليها الأمر كله وأن يحصل على موافقتها.

قالت حسناء في استنكار وصور فتيات "مرسى علم" المتعلمات الحضريات تمر أمامها:

"الفتيات في "مرسى علم" لا يتزوجن صغيرات في مثل سني هذا أبدًا!"

قال الأب: "تتزوجني أفضل من أن أتركك وحدك طول النهار في المنزل".

قالت: كنت متزوجًا أمي، وكنت تتركنا وحنا أيامًا وأسابيع".

قال: "والصحراء شيء آخر.. هناك تحميكم التقاليد الصارمة التي تحترم المرأة والفتاة، وتقتص أقصى القصاص لمن تسول له نفسه التعرض لأنثى.. أما الآن، فأنت تعيشين في مدينة.. والمدن شيء آخر!!".

عادت حسناء تقول: "وكيف ترضى أن تُزوجني رجلاً يكبرني بثلاثين سنة أو أكثر؟! لن أكون أبدًا زوجته، بل جاريته!!".

وهكذا فشل الأب في إقناعها بمشروع زميله، الذي لم يكن الأب نفسه متحمسًا كثيرًا له.

obeikandl.com

كم تمنت حسناء لو التحقت بالمدرسة الابتدائية بدلاً من قضاء اليوم وحدها في البيت، لكنهم قالوا لها إن سنها أكبر بكثير من أن يسمح لها بالالتحاق بالسنة الأولى الابتدائية.

وما إن أتت الجدة والدة أم حسناء في زيارة للسؤال عن أحوال حسناء، حتى قالت لها الحفيدة: "خُذيني أعيش معك يا جدتي كما كنت أعيش مع أمي، لكي أبتعد عن عيون هــؤلاء الذين يبحثون عن زوجات صغار في عمر أحفادهم!".

عندئذ قال والد حسناء للجدة: "بل لماذا لا تبقين معنا هنا يا خالة، لتكوني في صحبتنا، وتصبح حسناء في صحبتك؟".

قالت الجدة: "بل أنا الذي لا أتصور كيف استطعت أنت العــيش فــي هــذه المدينــة المزدحمة بمساكنها المتجاورة، المكتظة بالبشر الذين تصطدم بهم حيثما تطلعت. أنتم هنــا لا ترون السماء, وتحتجبون عن أشعة الشمس. هل نسيت الأيام التي كانت ترعى فيهــا الإبــل، وكان الصحراء بمراعيها المترامية هي حياتك؟! كيف تتحمل العيش داخل هــاتين الغــرفتين الضيقتين كأنما هما حجر ثعلب خائف، يراقب دخولك وخروجك أي غادٍ ورائــح، ويُحــصي علكي الآخرون كل حركة وكل كلمة؟!".

قال الأب: "سيارتي حلت محل الجمال، أذهب بها حيث أشاء في الصحراء".

هنا حسمت حسناء الحوار فقالت: "لما كنت أنا وجدتي لا نمتلك سيارة، فإنني أفــضل الذهاب إلى الصحراء مع جدتي، أعيش معها كما اعتدت أن أعيش مع أمي".

operakanal.com

وهكذا ركبت حسناء الجمل خلف جدتها، وقضتا ليلة بجوار البئر، وفي اليوم التالي أكملتا طريقهما إلى عشة الجدة، تعيش فيها حسناء كما كانت تعيش ذات يوم في الصحراء وبين الجبال مع أمها.

* * *

فجأة عادت حسناء من ذكرياتها، فدق تنبهت إلى أن الماعزتين قد تخلفتا عنها، فالتفتت حولها تبحث عنهما. كانتا قد توقفتا أمام مدخل منخفض بين جبلين تحاولان الوصول إلى بعض أوراق خضراء قليلة لشجيرة صغيرة، فأمسكت حسناء بحجر صوبته إلى كومة أحجار بجوار الماعزتين لتنبههما حتى تواصلا السير.

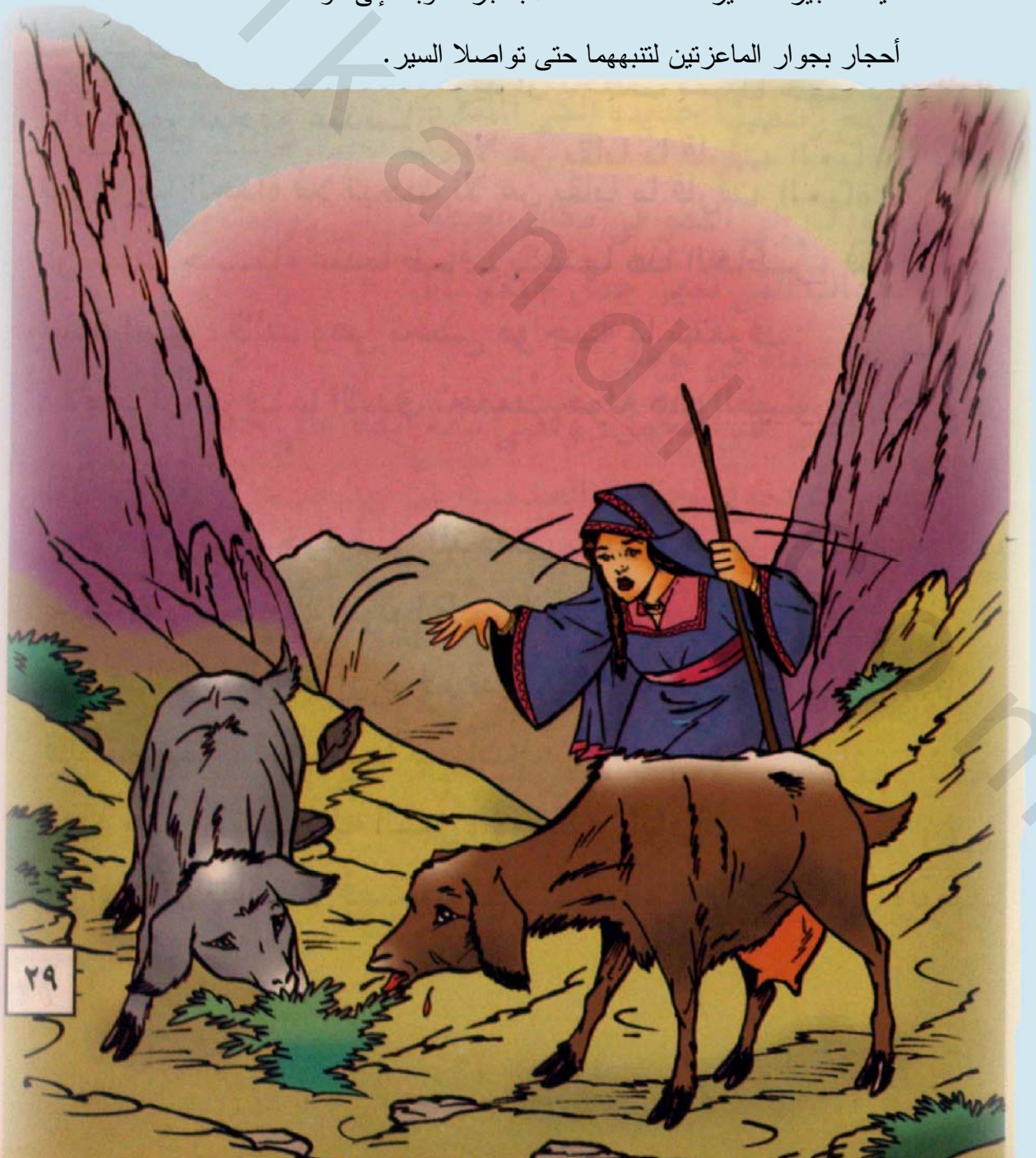

obeikandl.com

لكن ما أن اصطدم الحجر بالكومة حتى انهارت أحجارها متساقطة وهي تُحدث صوتاً عالياً رددت الصخور صداه، ففزعت الماعزتان وأسرعتا تبتعدان عن الشجرة.

لكن الصوت أفزع شيئاً آخر..

ففي اللحظة التي تحركت فيها الماعزتان، ارتفع في الهواء سرب من طيور الحدأة الجارحة كان مختفياً وهو يقف على الصخور في مكانٍ ما من الطريق الضيق بين الجبلين.

رفعت حسناء عينيها تتأمل الطيور قاتمة اللون بأجنحتها القوية تسبح حول رأسها في السماء، وسألت نفسها:

"الصقور تتجمع عندما تُريد أن تخطف شيئاً حياً مثل ماعزة صغيرة، أما الحدأة فلا تبحث إلا عن بقايا ما فارقته الحياة!!".

ارتجفت حسناء عندما طاف بذهنها هذا الخاطر، فتوقفت عن مواصلة السير. قالت وهي تخشى مواجهة ما ستعرف:

"لا بد أن أعرف ما الذي تجمعت حوله هذه الطيور الباحثة عن الموت!!". ووصلت إلى صخرة في المنخفض بين الجبلين، فرأت خلفها الضحية التي تجمعت حولها طيور الحدأة..

كان هناك جسم حيوان ضخم قد استلقى بغي حركةٍ!

قالت حسناء، وقد صدمها ما رأت:

"هذا جمل جدتي قتله السيل، وحملته المياه إلى هنا!".

وأرادت أن تتأكد، فهشت الطيور بعصاها بعيداً عن وليمتها

opelkanal.com

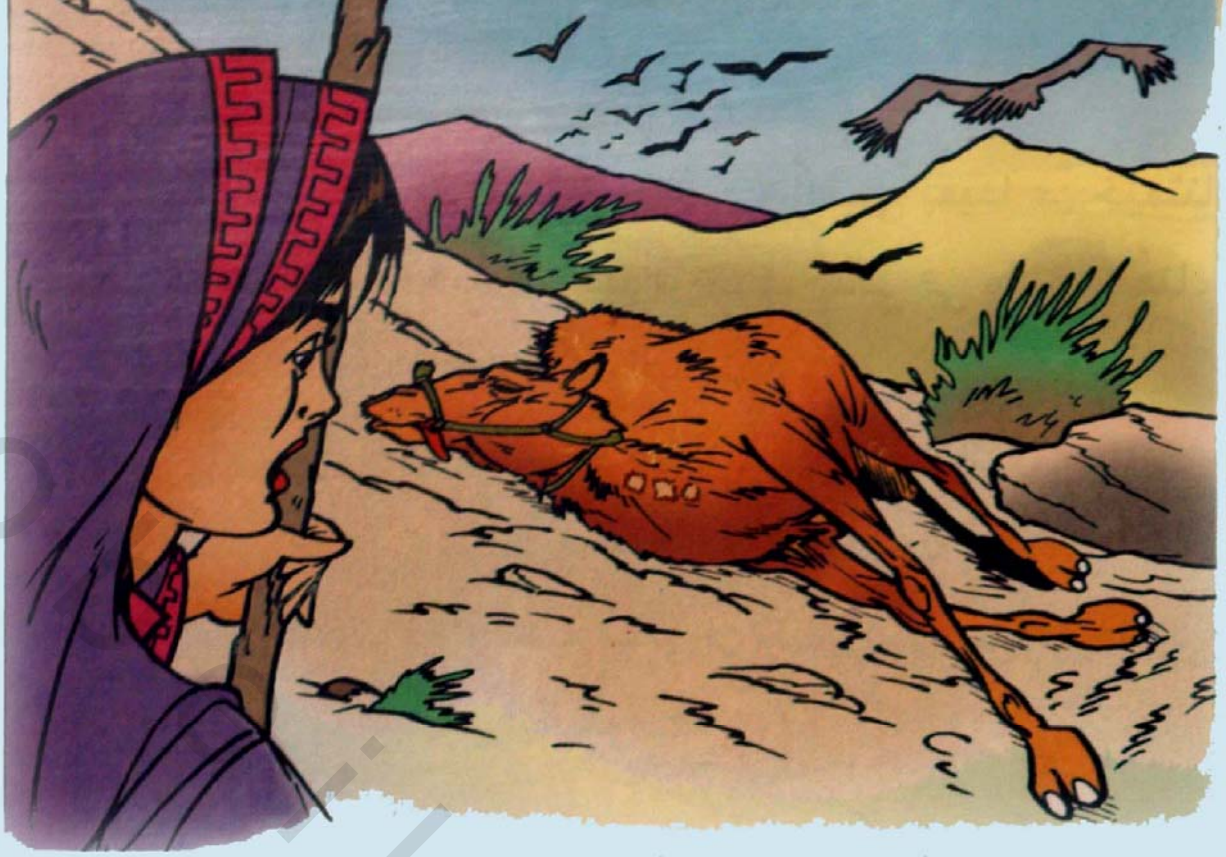

المنتفخة، وتأملت علامات "الكي" في رقبة الجمل.. نعم، دائرتان بينهما مربع رسمتها حديدة الكي الملتهبة بحرارة النار فأزالت الوبر ومنعت عودته إلى النمو في مكان الخطوط التي رسمت بها الأشكال..

إنها العلامات التي تُميز جمل جدتها!!!

صاحت حسناء في لوعة:

"السيل قضى على الجمل، وقضى معه أيضًا على جدتي!!".

وانهمرت دموع الحزن والصدمة من عينيها غزيرة لا تستطيع التحكم فيها".

لكنها تنبهت فجأة إلى شيء غاب عنها، فتلفت حولها تتساءل:

"لكن جماعات الحدأة تجمعت في هذه البقعة فقط، ولا يوجد شيء آخر تجمعت حوله هذه الطيور الرمادية، فهل يعقل أن يقتل السيل جملنا وتنجو جدتي؟!".

وتمهلت تفكر قبل أن تهمس ثانية لنفسها:

"إذا كان والدي قد وجد ذات يوم جسد والدتي بعيدًا عن خيمتنا التي كنا نعيش فيها، فلا بد أن أجد أنا جسد جدتي في مكانٍ ما هنا، ولن أتركها لحدأة تجرؤ الاقتراب منها".

وعادت تفتش جنبات الوادي الذي كانت قد وصلت إليه.

كانت تسير مرة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار.. مرة إلى الأمام وأخرى الخلف، ولم تعد تبالي أن تتبين أين هو الطريق إلى البئر، فقد سيطرت عليها رغبة أقوى:

"لا بد أن أعثر على جدتي"

ولم تعد تراقب الشمس للتعرف على الوقت، ولم تعد تُلقي بالاً إلى الماعزتين وقد ظهر كأنما أدركتا ما تعانيه صاحبتهما، فانطلقتا تتبعانها كظلها بغير حاجة منها إلى مراقبتهما.

* * *

هنا تنبهت حسناء إلى شيء غريب: "هل توجد في الطريق إلى البئر جبال تتشابه كل هذا التشابه؟!".

لقد وجدت نفسها بجوار جبل لونه أقرب إلى البياض وبجواره جبل أكثر ارتفاعًا نصفه العلوي أحمر والآخر يميل إلى السواد.

والتمعت فكرة في وعيها: "وهل أجد أيضًا جمل الصخر وسنامه؟".

وصدمتها لحقيقة.. فها هي الصخرة التي نحتتها الرياح على شكل رأس جمل وعنقه وسنامه!!

obeikandl.com

وقفت مذهولة تردد لنفسها بصوت مرتفع:

"لقد عدت إلى حيث بدأت بغير أن أدري. لم أجد جدتي وضاع اليوم

بغير أن أصل إلى البئر. من أين أجد الماء لي وللعنزات في هذا الوادي

شديد الجفاف الذي اختارته جدتي لتعيش فيه؟!".

كان لا بد أن تتخذ قرارًا حاسمًا، مهما كان في تنفيذه من مخاطر

فالبقاء في مكانها أو العودة إلى وخيمة جدتها معناه الموت

عطشًا، ومحاولة معاودة السير في الطريق إلى البئر لن يؤدي إلا على التعرض لحلول الظلام قبل الوصول، ومواجهة مخاطر ليل

الصحراء الغادر.

هنا تذكرت حسناء والدها:

"لقد جاء في مرة سابقة عندما عرف بالسيل الذي قضى على والدتي، فهل يمكن أن يأتي هذه المرة أيضًا ليبحث عني أنا وجدتي؟".

لكنها عادت تقول: "في تلك المرة لم نكن بعيدين عن مدينة "مرسى علم"، أما هنا فالمسافة أطول والمكان أبعد كثيرًا".

وفي حوارها مع نفسها أجابت عن تساؤلاتها: "وهل هناك مسافة بعيدة لمن يستخدم سيارة؟! صحيح ليست هناك طرق ممهدة، بل فقط وديان بين الجبال يُغطيها الحصى أو الرمال، لكن سيارة والدي مُعدة خصيصًا للسير بين الجبال وفي الوديان غير الممهدة، لكي تصل إلى أماكن معسكرات حفر آبار البترول".

* * *

عندئذ تذكرت الثعبان الملكي:

"لقد تتبعت مرة آثار زحفه على الرمال بعد أن كنت قد ضللت الطريق فعاد بي إلى عشة جدتي، فهل يمد لي اليوم يد المساعدة؟!".

لكنها عادت تتساءل: "لكن أية مساعدة هذه التي انتظرها منه وأنا في حاجة إلى الماء، والثعابين لا توجد عندها مياه؟ وعشة جدتي ليس بها ماءٌ، فلماذا أعود إليهما الآن؟!".

ثم تذكرت أمرًا: "إذا جاء أبي بسيارته، فأين يجدني إلا عند العشة؟! وبالقرب من العشة يمكن أن أعثر صديقي الثعبان الملكي. وحتى إذا قضى العطش على حياتي، فالعشة يمكن أن تحمي جسدي من مخالب

obeikandl.com

ومناقير طيور الحدأة التي تنهش أجساد الموتى بغير رحمة، إلى أن يعثر على أبي، فيدفنني بعد أن يقيم عليّ صلاة الجنازة".

لهذا بدأت حسناء رحلة العودة إلى "عشة" جدتها بخطوات متثاقلة، لا تتأخر عنها الماعزتان وهما تشاركانها الإحساس بالظمأ والحاجة الشديدة إلى الماء. لكن أين الماء وبينهم وبينه مسيرة يوم كامل على ظهر جمل للوصول إلى البئر، والوقت يقترب من العصر، وليل الصحراء مخيف، والجمل قد مات؟!

* * *

obeikandl.com

كل هذه الخواطر لم تمنع حسناء من ترك الماعزتين في "العشة" عندما وصلت إليهـــا، ثم الخروج إلى المنطقة المحيطة تبحث عن آثار الحية الملكية.. كان هذا هو الـــشيء الوحيـــد الذي يُمكن أن تقوم به!

وطال بحثها، مع أنها لم تعد تفكر في نوع المساعدة التي يمكن أن يقدمها لها الثعبـــان الملكي في محنة العطش القاسية، وهي محنة جعلتها أقرب إلى الموت منها إلى الحياة.

لكن دافعًا غامضًا سيطر عليها:

"لقد ساعدتني الحية الملكية ثلاث مرات سابقة وعلى غير توقع مني، وقد أجد عنهـــا اليوم أيضًا نوعًا من المساعدة لا أستطيع تحديده أو توقعه".

* * *

وكأنما هناك قوة سحرية تدفعها إلى البحث عن أثر الحية، فبحثت عنه طويلاً، وأخيرًا وجدته، وتتبعته..

وتحت أشعة الشمس الدافئة عند العصر، وخلف صخرة تُخفيه عن العيـــون، وجـــدت حسناء صديقها مُلتفً حول نفسه، وقد أراح رأسه فوق طيات جسمه.

وقفت حسناء أمامه ساكنةً وعيناها مُصوبتان إلى العينين الخضراوين كأنهما زُمردتان تُشعان بريقًا كالماس.

وفي جلال رفعت الحية رأسها حتى أصبحت عيناها في مواجهة عيني حسناء.

obeikandi.com

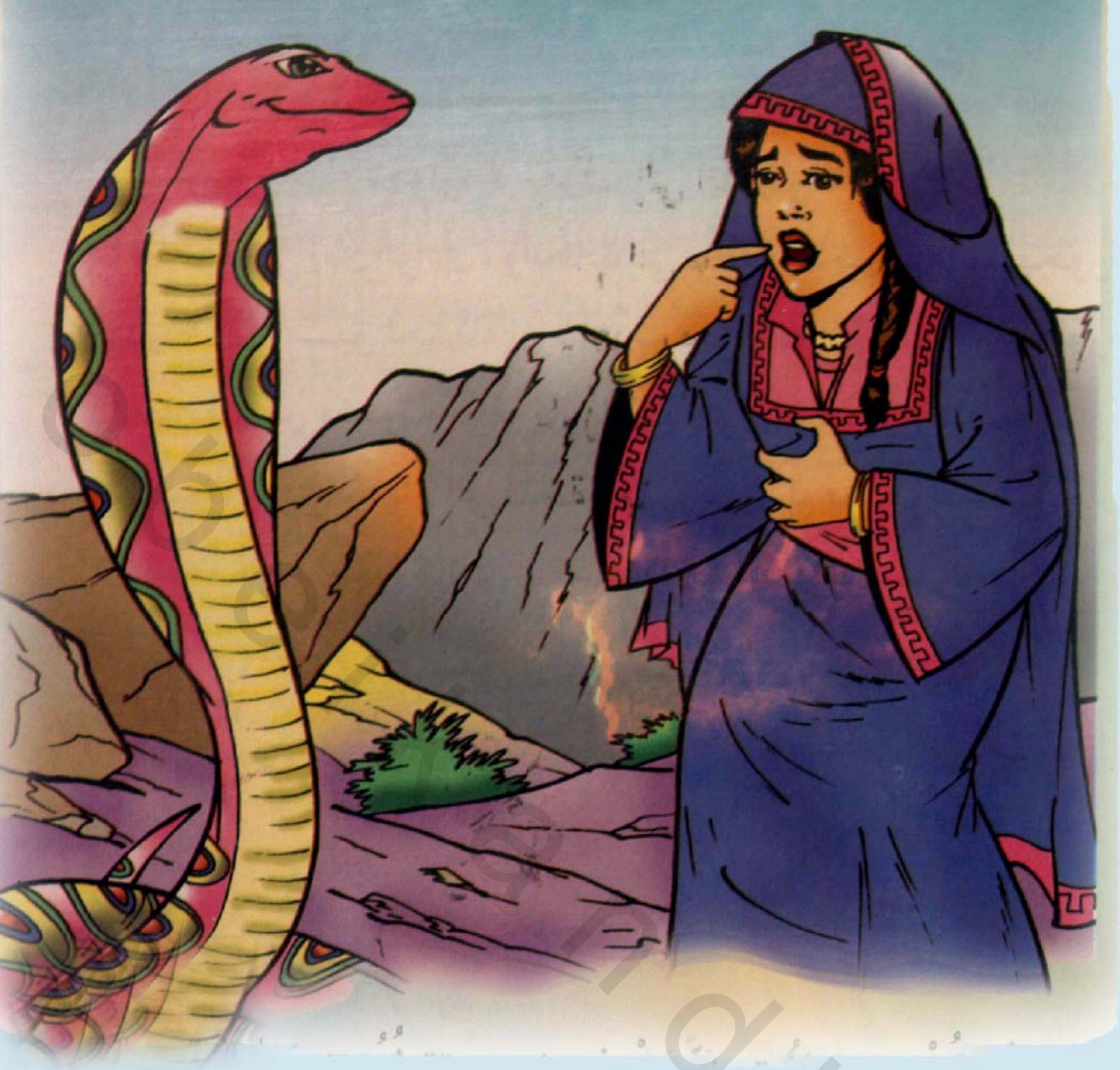

لم تكن حسناء قد فكرت في شيء تقوله عندما تلتقي بالثعبان الرائع، لكنها وجدت نفسها بغير تفكير تشير إلى فمها وتضغط بكفيها على بطنها وتقول في استغاثة: "ماء!!.. أنا عطشى..!".

وتأملها الثعبان الملكي لحظات، كأنما يحاول أن يتأكد من معنى لهجة الصوت المتوسل الذي أرهقه العطش، ودلالة إشارات الأيدي التي تُفصحُ عن أن الجسم أصبح يفتقد أهم ما يحفظ عليه الحياة؟!

ثم راقبت حسناء الثعبان الملكي يهبط برأسه الشامخ ليستقر في هدوء فوق الرمال، ثم انساب جسمه الرشيق الطويل من بين الطيات وانطلق إلى الأمام.

وسارت حسناء بجواره لا تعرف إلى أين يقودها.

لقد نزل إلى بطن الوادي، وانساب إلى منطقة مناجم الذهب المهجورة القديمة التي سبق لحسناء أن شاهدت على جدرانها الصخرية صورة الثعبان المقدس منحوتة نحتًا بارزًا يُعبر عن القوة والاعتداد.

هناك اتجه الثعبان إلى فتحة كهف صغيرٍ لم يسبق لحسناء أن لاحظته، لأن صخورًا كانت قد سقطت مع سيول سابقه فأخفته،

ودخلت الحية إلى الكهف.

سألت حسناء نفسها: "هل أدخل خلفه؟ أظن أن هذا هو مسكنه، فهل من المناسب أن أزاحمه حيث يعيش أم أنتظره حتى يعود ويخرج؟".

وتذكرت حكايات سمعتها من والدتها وجدتها، عن حيات قادت من فعل معها الخير إلى مكان كنوز هائلة مخبأة من الذهب واللآلئ، كما تذكرت كيف ساعدها الثعبان في مرات سابقة، فدخلت.

وتقدمت خطوات في فراغ الكهف المظلم ثم فوجئت بانكشاف النهاية الداخلية للكهف عن فجوة متسعة في السقف الصخري، جعلت ضوء النهار يتدفق منها فيغمر المكان.

وأنزلت حسناء بصرها من الفجوة التي كانت تتطلع منها إلى السماء، لتُلقي نظرة على الأرض أمامها وعلى ما تحت قدميها، وفي الحال صدرت عنها صرخة كلها دهشة: "ماء!!".

obeikandl.com

كان الضوء يسقط مباشرة من فتحة السقف ليتلألأ على سطح مياه تملأ خزاناً كبيـــرًا متسعًا منحوتًا في الصخر الأصم، قدّرَت حسناء أن المياه ملأته عندما ارتفع ماء الـــسيل فـــي الوادي بعد ظهر اليوم السابق.

ورأت حسناء بضع درجات صغيرة محفورة في الصخر على جـــدار الخـــزان إلـــى يسارها، فهمست لنفسها:

"لا شك أن الأجداد كانوا يستخدمون هذه الدرجات منذ آلاف السنين للنزول إلى قـــاع الخزان، لتنظيفه ولاغتراف الماء إذا هبط سطحه كثيرًا عن متناول أيديهم عند الحافـــة العليـــا للخزان".

وفي حذر نزلت على الدرجات المهشمة غير المستوية، إلى أن وصلت عند مـــستوى سطح الماء، ثم اغترفت بكفيها، وشربت!

كان الماء عذبًا.. أعذب ماء شربته في حياتها!

وفجأة تذكرت الثعبان الملكي، فلم يكن إرواء ظمئها، بل عـــادت تـــصعد الـــدرجات، ووقفت في مواجهة عيني رموز الملك القدامى، وضمت كفيها أمام صدرها، وقالت بـــصوت يملؤه الاعتراف القوي بالجميل "أشكرك".

ثم تذكرت العنزتين فأسرعت إلى الخيمة لتعود بهما؛ لتأخذا هما أيضًا كفايتهمـــا مـــن الماء.

ومع الماعزتين أحضرت من الخيمة وعاء الطهي الكبير، فملأته مـــن مـــاء الخـــزان الصخري، ووضعته عند الحافة العليا للخزان، وتركت الماعزتين تشربان كفايتهمـــا بعـــد أن شربت هي كفايتها.

وعندما تلفتت تبحث عن الحية، لم تجدها.. كانت قد اختفت أثناء ذهابها إلى الخيمـــة لإحضار الماعزتين.

obeikandl.com

عندما عادت حسناء تلفتت إلى الماعزتين، لاحظت أنهما قد تركتا الوعاء بعد أن فرغ ما فيه من الماء.

ودهشت عندما وجدتهما لم تنزلا الدرجات لتصلا على سطح المـــاء المـــنخفض فـــي الخزان الصخري، بل كانتا تلعقان الماء من سطح صخرة أسفلها ما يشبه المجرى الـــضئيل، يمتد ما بين حافة الخزان العليا وتلك الصخرة.

اقتربت حسناء من الماعزتين وهي تسأل نفسها: "من أين جاء هذا الماء الـــذي تلعقـــه الماعزتان عند حافة الخزان العليا؟!".

وكم كانت دهشتها عندما اكتشفت شقًا صغيرًا في الصخرة التي تعلو المجرى الضئيل، تنبثق منه نقط صغيرة من الماء، لكنها لا تتوقف ولا تنقطع!!

"نبع.. هذا نبع ماء!!".

ثم نظر إلى الماء في الخزان وأضافت:

"هذا ليس ماء السيل.. إنه رائق صاف.. إنه ماء النبع!!".

كان هذا اكتشافًا أثمن بالنسبة إلى حسناء وأغلى من اكتشاف الذهب داخل المنجم!

قالت تحاول أن تقنع نفسها بأنها تعيش في الحقيقة وليس في خيـــال قـــصص جـــدتها ووالدتها:

"عين ماء في الصحراء هي الحياة، وهي الحماية من الموت عطشًا،

openkandi.com

وهي عدم الحاجة إلى السفر نهارًا كاملاً للذهاب إلى البئر والعودة..

بل هي أيضًا إمكانية زراعة أشجار النخيل والزيتون".

ومع ذلك فقد قالت في اللحظة التالية، كأنما ندمت على فرحتها:

"لكن أين جدتي لتسعد معي بهذا الاكتشاف العظيم؟! من غير

الممكن أن أستطيع مواصلة الحياة وحدي هنا بغير جدتي، حتى بعد

العثور على هذا النبع النادر الثمين!".

لم التفتت تسحب الماعزتين، تقودهما في غير حماس إلى عشة

جدتها.

كانت تخطو من صخرة إلى صخرة، إلى أن نزلت الوادي الذي كانت تحجبه عنها بعض الصخور التي تحيط بمنطقة مناجم الذهب القديمة. وفوجئت بسماع صوت لم تعتد سماعة هنا أبدًا.

وبتركيز شديد عادت تصغي ثانية..

إنه صوت تعرفه جيدًا، لكنها لا تريد تصديق أذنيها!!

هل يمكن أن يكون هذا الصوت الذي كان تترقبه كل مساء في ميعاد عودة والدها من مركز التعدين إلى بيتهم في مدينة "مرسى علم"؟!

وفجأة أفلتت حسناء الماعزتين من يديها، وقفزت إلى قمة مرتفعة لترى الوادي كله بوضوح..

وكان ما سمعته صحيحًا..

فهذه سيارة والدها تتقدم ببطء في الوادي.

وبصرخة اختلطت فيها الفرحة باللوعة صاحت:

"والدي جاء يبحث عني، لكن جدتي أخذها السيل كما أخذ والدتي من قبل!!".

واندفعت تقفز إلى بطن الوادي، تُسرع وقد ملأها الانفعال لملاقاة والدها.

وشاهدها والدها، فأوقف سيارته في انتظارها.

لكن حسناء لم تجد والدها وحده في السيارة..

صاحت وهي تفتح في لهفة باب المقعد الخلفي:

"جدتي!"

وفي نفس اللهفة صاحت الجدة:

"حسناء!".

obeikandl.com

كانت كل منهما كأنما عثرت على شخص بعث إلى الحياة من الموت!!

وفي عبارات قليلة، عرفت حسناء أن الجدة عندما كانت في طريق عودتها من البئر، ملأها إحساس داخلي بالخطر. وفي الحال تركت الجمل في بطن الوادي، وتسلقت جبلاً احتمت بصخرة بعيدًا عن ماء السيل الذي تدفق بعد لحظات من صعودها، وبعد أن توقف ماء السيل، اكتشفت أن الجمل قد مات فقد رأته طافيًا فوق الماء، فعادت مشيًا إلى البئر، حيث قابلها والد حسناء، وجاءا معًا يبحثان عن الابنة والحفيدة.

هتفت حسناء:

"في هذه المرة لن يعود أبي إلى مرسى علم، ولن تعودي يا جدتي للسفر إلـــى البئـــر مرتين في الأسبوع!"

صاح الأب في دهشة: "وكيف نعيش؟"

صاحت حسناء:

"وجدت نبع ماء!!"

وفي صوت واحد صرخت الجدة والأب غير مصدقين:

"تقولين نبع ماء؟!".

أجابت حسناء:

"وسنزرع النخل والزيون، ونقتني قافلة جمالٍ، وقطيعًا كاملاً من الماعز والضأن!!".

قال الأب وكأنه استمع إلى مزحة :

"قولي كلامًا معقولاً غير هذا يا حسناء!"

وقالت الجدة غير مصدقة:

"أعيش في هذه المنطقة الجرداء القاسية منذ خمسين عامًا وتكتشفين أنت اليـــوم عـــين ماء؟!".

قالت حسناء:

"دلتني عليها الحية الملكية!"

وتبادل الأب والجدة النظرات، كأنما قد بدأ الشك يساورهما في سلامة قـــوى حـــسناء العقلية، نتيجة الفزع الذي واجهته مع السيل.

وأرادت حسناء أن تؤكد أن الأمر جد لا هزل فيه ولا خيال فأضافت:

obeikandl.com

"الماء يسيل من الصخر في قطرات، لكنها قطرات لا تنقطع منذ آلاف السنين.. يبدو أن عمال منجم الذهب كانوا يعتمدون عليها في الزمن القديم".

وأشرقت الحقيقة أخيرًا على ذهن الأب، فقال في حماس:

"وعلى صخور المنجم كتابات ورسوم أثرية.. سنقيم أيضًا معسكرًا للسياحة الصحراوية، أجيء إليه بالسائحين من "مرسى علم"، مستخدمًا سيارتي..".

وأضافت حسناء قائلة لوالدها:

"وتختار لي من أتعلم معها القراءة والكتابة واللغات الأجنبية، وأصبح مرشدة للسائحين عندما يمتلئ بهم معسكرنا، الذي لا بد أن نطلق عليه اسم "معسكر نبع الثعبان الملكي".

هنا قالت الجدة في استنكار:

"لقد أصبح كلاكما يحب الضوضاء والزحمة، فليرحمني الله!!".

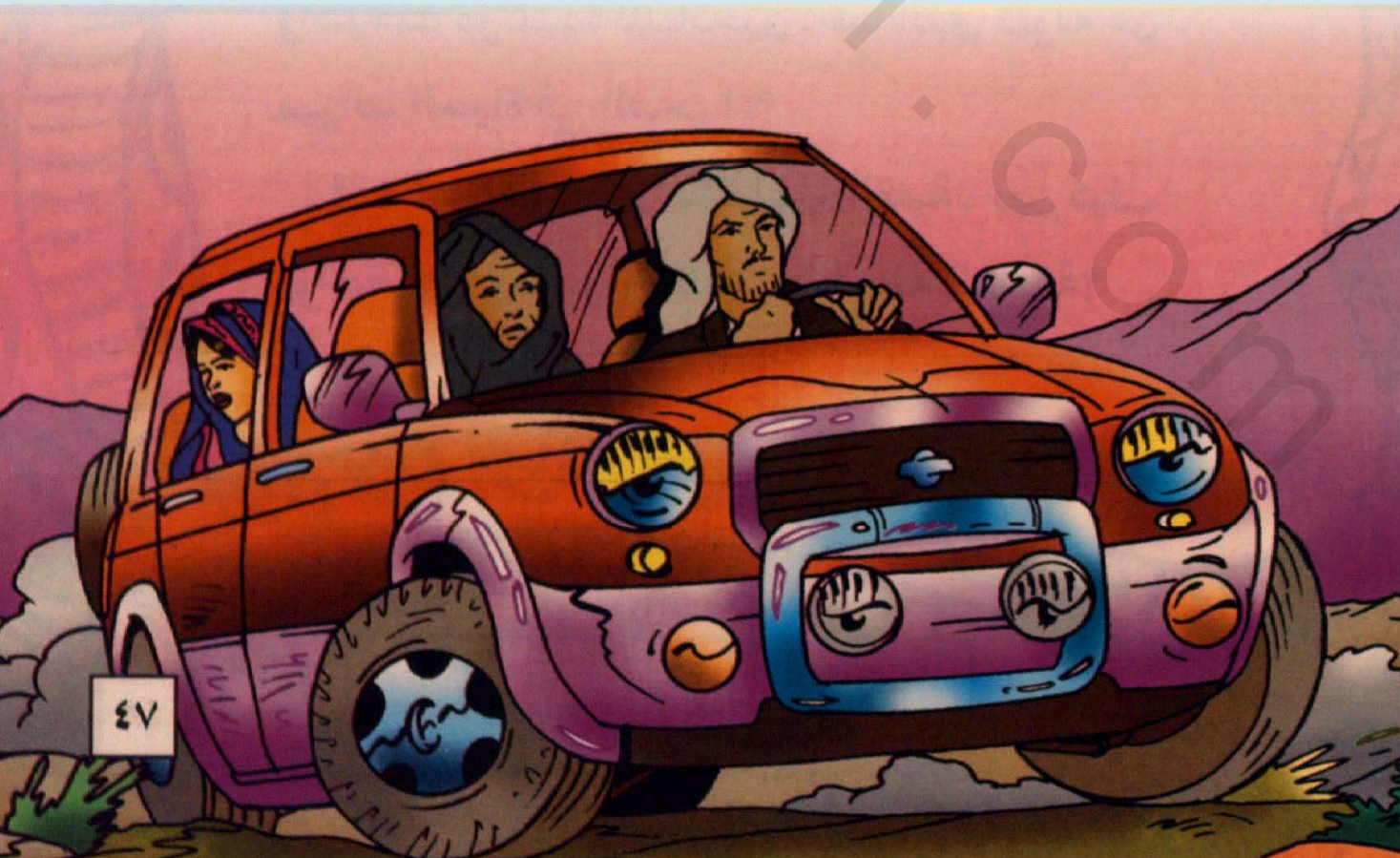

obeikandl.com

أنشطة حول القصة:

- نقترحُ عليكَ أن تشتركَ فى أحدِ ، أو كلِّ الأنشطةِ الآتيةِ:

١ - تمكّنَتْ حسناءُ أن تعتمدَ على نفسِها فى مواجهةِ مواقفَ خطيرةٍ وجديدةٍ عليها، اذكرْ بعضَ مواقفِ القصةِ التى نتعرفُ من خلالِها على أهمّ ما يُميّزُ شخصيةَ حسناءَ.

٢ - تناولَتِ القصةُ بعضَ المعتقداتِ الشعبيةِ لمن يسكنونَ صحراءَ مصر الشرقيةَ بينَ سلاسلِ جبالِ البحرِ الأحمرِ ووادى النيلِ، اذكرْ بعضَ هذه المعتقداتِ وبَيّنْ رأيَكَ فيها.

٣ - تَخيّلْ أنكَ فى موقفِ حسناءَ بعد أن تعلّمَتْ وأصبحَتْ مرشدةً للسائحينَ، فما الذى تقولُهُ عن ميزاتِ الحياةِ فى الصحراءِ؟

٤ - فى ضوءِ مطالعتِكَ لهذه القصةِ، بَيّنْ كيفَ يواجهُ أهلُ الصحراءِ تقلباتِ الطبيعةِ العنيفةَ؟

رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢٢٥٢٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6906-9

٧/٢٠٠٥/٧١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

المكتبة الخضراء للأطفال

روائع من القصص ، تتألق بالخيال والأسطورة تقدمها « دار المعارف » لناشئة الأقطار العربية فيجدون فيها ما يناسب خيالهم ويساير أرواحهم وتطلعاتهم ، فى إطار التعبير الجيد والحروف المشكولة ، والإخراج الفنى المزين بالرسوم واللوحات الملونة .

وهى قصص يعتز بها كل فتى وفتاة ، ويعتز بها أولياء أمور أبنائنا ورجال التربية والتعليم ، فهى تغذى النشء وترفع نفوسهم وتوجههم الوجهة الصحيحة إلى طريق الخير والجمال .

صدر منها :

١ - أطفال الغابة
٢ - سندريلا
٣ - السلطان المسحور
٤ - القداحة العجيبة
٥ - البجعات المتوحشات
٦ - الأميرة الحسناء
٧ - الرفيق المجهول
٨ - الأميرة والثعبان
٩ - الملك عادل
١٠ - البلبل
١١ - الأنف العجيب
١٢ - الجميلة النائمة
١٣ - عروس البحر
١٤ - عقلة الأصبع
١٥ - الأخوات الثلاث
١٦ - البنت والأسد
١٧ - المغامر الجرىء
١٨ - قصير الذيل
١٩ - الليمون العجيب
٢٠ - فى جزيرة النور
٢١ - الفأرة البيضاء
٢٢ - جبل العجائب
٢٣ - أليس فى بلاد العجائب
٢٤ - الراعى الشجاع
٢٥ - الصياد الماهر
٢٦ - الكرة الذهبية
٢٧ - الشاطر محظوظ
٢٨ - الحصان الطيار
٢٩ - أميرة القصر الذهبى
٣٠ - دنانير لبلبة
٣١ - نهر الذهب
٣٢ - خاتم السلطان
٣٣ - المرآة السحرية
٣٤ - بنات الصياد
٣٥ - الوزير الحكيم
٣٦ - سر اللحية البيضاء
٣٧ - سر الشعر الأسود
٣٨ - القدم الذهبية
٣٩ - الرحلة العجيبة لعروس النيل
٤٠ - سر العلبة الذهبية
٤١ - التاج المسحور
٤٢ - عفاريت نصف الليل
٤٣ - النجم الكبير
٤٤ - مملكة العدل
٤٥ - الصياد المسكين والمارد اللعين
٤٦ - بدر البدور والحصان المسحور
٤٧ - مغامرة زهرة مع الشجرة
٤٨ - أمير فى بلاد الأقزام
٤٩ - الطبلة المسحورة
٥٠ - حلم من دخان
٥١ - بلاد النهر
٥٢ - حسناء والثعبان الملكى
٥٣ - تائه فى القناة
٥٤ - سلطان ليوم واحد
٥٥ - ضوء النهار والملك زنكار

دار المعارف
٢٣١٥١٥/٠١

obeikandl.com